الباب الأول

(١) نشـأة الماركسـية

يـرى بعض الناس فى الماركسية مجرد حركة سياسية أو اجتماعية شبيهة بغيرها من الحركات السياسية والاجتماعية ، فهى عند هؤلاء مجرد منهج للحكم ، أو مجرد حـل فنى للمشاكل الاقتصادية ، بينما يذهب آخرون الى أن الماركسية ليسـت الا حركة وصولية تهدف الى تحقيق غاياتها عن طريق اثـارة الجماهير بالشعارات البراقة ، والعبارات الضخمة ، والخطب الرنانـة .

أمـا الماركسيون فانهم يقدمونها على أنها مذهب شـامل متكامل ، لـه رأيه الخاص فى الانسان والتاريخ ، فى الفـرد والمجتمع ، فى الطبيعة والخالق ، مذهب نظرى وتطبيق عملـى على السـواء .

عندما ظهرت الماركسية فى القرن التاسع عشر كان هنـاك اتجاهان فكريان يسودان أوربـا : المسيحية ، والمذهب الفردى ، أما المسيحية فهى قائمة على الطبقيـة فى الكائنات والأعمـال والقيم والأشخاص . وأما المذهب الفردى فقد ظهر فى القـرن السادس عشر على يـد الفيلسوف الفرنسى "Montaigne" (مونتنى) (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) هذا المذهب يرى أن الفرد هـو الحقيقة الأساسية فى هذا الوجود لأنـه يملك العقل . والفرد لـه جانبان : عـام وخاص فالخـاص يقـوم على حاجـات الفـرد الشـخصية ، والعـام يتنـاول حاجات المجتمع والبيئة . وهنـاك انسـجام تلقائى بين الجانبين : الخاص والعـام ، كمـا أن هنـاك انسـجاما

بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة (أى مصلحة جميع الأفراد) ، بين الحقوق والواجبات ، بين الطبيعة والانسان ٠

هذا المذهب الفردى الذى يرفض الطبقية الكنسية ، ويبشر بالانسجام بين الانسان وغيره ـ قام ليعارض نظام الكنيسة ، وهو يتلاءم تماما مع المذهب الليبرالى "Le Libéralisme" الذى يدعو الى الحرية الانسانية والى تحكيم العقل فى كل شئون الحياة ، الأمر الذى يتعارض مع اتجاه الكنيسة التى ترى أن مسائل الاعتقاد خارجة عن دائرة العقل ٠ وقد أدى ظهور هذين المذهبين وانتشارهما الى ضعف سلطة رجال الدين ، وتقلص نفوذ طبقة الاشراف ، وظهور الطبقة البورجوازية "La Bourgeoisie" أو ما يسمى بالطبقة الوسطى ٠

كان النظام الاقتصادى السائد فى أوربا فى القرون الوسطى هو نظام الاقطاع القائم على ملكية فرد لمساحات شاسعة من الأراضى بما عليها من عقارات ومخلوقات ، وكان فلاحو الأرض يعدون عبيدا لمالك الأرض ٠٠ ومع ظهور المذهب الفردى ، والمذهب الليبرالى بدأت طبقة أخرى فى الظهور هى الطبقة الوسطى (البورجوازية) ، وهى تتكون من التجار والموظفين والمحامين والأطباء ٠٠ الخ ٠٠ ، أى هؤلاء الذين لا ينتمون الى الطبقة الارستقراطية المتمثلة فى الأشراف ورجال الدين ، ولا ينتمون الى طبقة عبيد الأرض ٠

وبظهور الصناعة الحديثة ، واستخدام البخار والآلة ، وتأسيس المصانع الكبيرة برز الى الوجود نظام اقتصادى جديد ، هو النظام الرأسمالى الذى ولد فى أحضان البورجوازية ، كما ظهرت طبقة جديدة ، هى طبقة البر "Le Prolétariat" أى طبقة العمال ٠

وفى القرن التاسع عشر ـ وحركة التصنيع فى أوجها ،

والرأسمالية فى أسعد أيامها ـ قام رجل ألمانى يدعى : « كارل ماركس » ليبشر بمذهب جديد ، فبينما يرى المذهب الفردى أن هناك انسجاما تلقائيا بين الفرد والمجتمع ٠٠ بين الانسان والطبيعة ٠٠ بين الحقوق والواجبات ـ يرى « ماركس » عكس ذلك ، يرى أن ظهور المصانع الكبرى والنظام الرأسمالى أدى الى تناقضات فى المجتمع ، لقد استلزم تأسيس المصانع الكبرى ظهور طبقة العمال ، كما أن النظام الرأسمالى قد أدى الى ظهور الاستخدام والافقار لطبقة كبرى من المجتمع ، وهى طبقة العمال ، انها طبقة مستغلة مستعبدة مستذلة من قبل البورجوازية الرأسمالية التى تستولى على حصيلة جهدها وعرقها ولا تعطيها الا الكفاف ، وبذلك يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا وتزداد الفوارق بين الطبقات ، ان الأطفال فى سن السابعة يعملون فى المناجم ثمانية عشرة ساعة فى اليوم فى مقابل دريهمات لا تشبع بطنا ولا تكسو جسدا عاريا ، ان طبقة العمال ذات مصالح تتعارض مع مصالح الرأسمالية ، وبالتالى فعليها أن تكافح من أجل تحقيق مصالحها ٠

فبينما يرى المذهب الفردى أن هناك انسجاما تلقائيا بين أفراد المجتمع ، وبين الفرد والبيئة ، وبين الفرد والطبيعة ـ يرى « ماركس » أن هناك تناقضات فى الانسان والمجتمع ، وبناء على هذا فان المصلحة الفردية (الخاصة) قد تتعارض ـ وهى غالبا ما تتعارض ـ مع المصلحة العامة ٠ ان رغبات الأفراد ـ وبصفة خاصة رغبات بعض الطبقات الاجتماعية ـ وبالتالى مصالحهم لا تتفق تلقائيا مع العقل ولا مع العلم ٠ كما أن الانسجام بين الانسان والطبيعة هو غير موجود ٠ فالانسان يصارع الطبيعة ، لا ينبغى أن يقف سلبيا ازاءها يتأملها أو يغرق فيها بطريقة رومانتيكية ، بل يجب أن يصارعها

ويهزمها ويسيطر عليها بالعمل وبالفن وبالمعرفة العلمية ، وبهذا يحقق ذاته ٠

فالماركسية قائمة أساسا على وجود التناقضات فى المجتمع ، والتناقضات بين الطبقات ومصالحها المختلفة ، وهى تدعو طبقة العمال الى الصراع من أجل أن تسود هى المجتمع وتتغلب عليه لتحقيق مصالحها ٠

(٢) « ماركس » والمادية الجدلية

منذ العصور القديمة وهناك فلسفتان متمايزتان تتحكمان فى أفكار الناس ، هما : الفلسفة المادية والفلسفة المثالية ٠

الأولى هى التى تقول : انه ليس فى الوجود الا المادة التى تحس ووسيلة ادراكها هو الحس وحده ، والثانية التى تقول : انه بجوار هذه المادة المحسوسة توجد أشياء أخرى غير محسوسة ، وبالتالى فهى غير مادية وذلك كالروح والعقل ٠٠٠ الخ ٠

ولقد كانت فلسفة « ماركس » التى وضعها لتنظيم كفاح العمال ضد الرأسمالية فلسفة مادية تنكر وجود أى شىء سوى المادة ٠

والفلسفة المادية قديمة جدا ، ففلاسفة اليونان الأولون المعروفون باسم الطبيعيين الأولين كانوا ماديين يبحثون عن المادة الأولى التى تكون منها هذا العالم ، وفلاسفة الهنود الأقدمون كانوا يرون أن العالم يتكون من أربعة عناصر : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ويقولون ان العالم يتطور بفعل طبيعته ذاتها ٠

وتطورت الفلسفة المادية القديمة على يد « ديمقريطس » الذى يرى أن العالم يتألف من ذرات ، وهى جزيئات لا ترى ، تختلف فى الشكل والحجم ، أبدية ، وهى لا تنقسم ، وتتكون الأشياء من التقاء هذه الذرات ، وتنعدم بتفرق هذه الذرات .

أما « أفلاطون » فقد كان يرى أن الوجود الحق انما هو لعالم « المثل » ، أما الوجود المادى فهو وجود صورى فقط ، ومن ثم فقد كان أفلاطون فيلسوفا مثاليا .

أما « أرسطو » فقد انتقد نظرية المثل الافلاطونية ، وقال بتنوع الموجودات بين مادى وروحى ، كلاهما يتمتع بوجود حقيقى .

ومن هنا يتبين أن الفلسفة المادية التى تقول : انه لا موجود الا المادة ـ هى فلسفة قديمة .

أما الجدلية فمعناها القول بالتطور الذاتى للأشياء .

وقد ظهرت الجدلية بهذا المعنى على يد الفيلسوف اليونانى « هيراقليطس » الذى كان يذهب الى أن كل شىء هو فى تغير مستمر ، وكان يرى أن النار هى المادة الأولى للكون ، والعالم فى نظره نار حية أزلا وأبدا تشتعل بانتظام وتخمد بانتظام .

كما أن الفيلسوف اليونانى « انكمشندر » كان يرى أن الكائنات الحية ظهرت فى صورة دنيئة ثم تدرجت فى التطور ، حتى الانسان نفسه كان سمكا يعيش فى الماء ثم خرج الى الارض ، وبفعل البيئة تحولت الزعانف الى أعضاء وجوارح لمساعدة الانسان على الحياة ، والتكيف مع البيئة .

ولقد تطورت هذه النظرية لـدى « دارون » الذى يقول بالتطور وبالانتخاب الطبعى ، وبالصراع وبقـاء الاصلح ٠

فالقول بأنه لا موجود الا المـادة ، وبالتطـور الطبعى للأشياء والمجتمعات هو أساس الفلسـفة الماركسية ، وهذا ما يسـمى بالمـادية الجـدلية ٠ وهذه الآراء كما رأينا ليست حديثة بل هى موجودة أساسا فى الفلسـفات القديمة ، وكل ما فعله « ماركس » هـو أنه جمع بين المـادية والجـدلية فى نظـرية واحـدة ٠

(٣) العلاقـة بين الجدلية والتطـور

ان كل جهد يبذل من أجل الوصـول الى الحقيقة ، ومن أجـل التقـدم فى المعرفة الانسانية يقوم على المواجهة بين قضيتين متعارضتين ، بين الاثبات والنفى ، بين التأييد والمعارضة ٠ هذا أمـر لا نقاش فيه ، ويعتبر من المسلمات ٠

ولكن من أين يأتى التعارض بين القضيتين ؟ هنـا سـؤال يعتبر دقيقـا للغايـة ٠

يقال ـ بصفة عامـة ـ ان الخلاف والتعارض بين الأفـراد الذين يفكرون ويعبرون يأتى من أخطائهم ومن النقص فـى تفكيرهم ، ولـو أنهم جديرون بالتفكير السليم ويملكون أدواته الضرورية من حدس أو عبقرية فأنهم يستطيعون الوصول بدون مشـقة الى ادراك الحقيقة ٠

هذه النظرية التى يقـول بها معظم الفلاسـفة ، ويقول بها أيضا الحس المشترك ـ تنسب التناقض فى الفكـر الى نقص هذا الفكـر فقط ، والى الحقيقة القائلة : ان كل تفكير انسانى هـو غير كامل ٠

والفلسفة الماركسية ، وان كانت تسلم بذلك فى بعض الحالات ـ كما يدل على ذلك أنه ـ فى بعض المسائل ـ يمكن الوصول ـ بعد التحقيق والفحص والتدقيق ـ الى اتفاق بين المتعارضين والخروج من التناقض ـ الا أنها لا تسلم بهذه النظرية على علاتها ، وترى أنها غير كافية لتفسير التناقض بين الأفراد الذين يفكرون ٠

فالتعارض بين القضايا لا يرجع فقط الى نقص فى التفكير الذى لا يستطيع ادراك جميع جوانب القضية ، بل يجب التسليم بأن موضوعات التفكير نفسها تحتوى على هذا التعارض ، وأن التعارض يجد نقطة انطلاقه فى موضوعات التفكير ذاتها ، وبعبارة أخرى : ان التعارض الشخصى بين الأفراد له وجود حقيقى فى الخارج وليس ذهنيا فقط ٠

فاذا كان هناك نفى واثبات فليس مرجع ذلك الى أن الحقيقة لها جوانب متعددة لا يستطيع الفكر الانسانى ادراكها جميعا ، ولكن لأن لها جوانب متغيرة ومتعارضة ، فالعقل الانسانى مضطر الى أن يستوعب هذه الجوانب المتغيرة ، وهذه المتناقضات حتى يصل الى الحقيقة ٠

هناك اذن موقفان مختلفان ازاء هذه المتعارضات والمتناقضات :

الموقف الأول : يقول ان هذا التناقض ظاهرى فقط ، وهو يأتى من نقص التفكير الانسانى الذى لا يستطيع ادراك جميع جوانب الحقيقة ، فالانسان عاجز عن الوصول الى الحقيقة بمجرد عقله ، وعليه أن يعتمد على الالهام أو الوحى ـ وهذا هو موقف الدين ٠

الموقف الثانى : يـرى أن هذا التعارض حقيقى ، والعقـل الانسانى مضطر الى ادراك الجوانب المتناقضـة فى الشىء ، وهذا التناقض يأتى من جهة التغير المستمر والتطـور ـ وهذا هو موقف الفلسـفة الماركسية ، فالجدلية عندها تعنى التناقض الذاتى فى الأشياء ، وهو ناشىء عن التطـور الذاتى ، وهـو تطـور من أدنى الى أعلى دائما ٠

(٤) المنهج الجدلى

عندما يتجـه الانسان الى تحصيل نـوع من أنـواع المعرفة فانه يضـع لنفسه غاية معينـة يهدف اليها ـ ولكن هذا وحده ليس كافيـا لتحصيل المعرفـة ، بـل لابـد أن يهتدى الانسان الى الطريق السـوى الذى ينتهى بـه الى هـذه الغاية ، وهو ما يعـرف باسم المنهج ٠

فالمنهج هو : مجموع المبادىء والأساليب التى تصل بالباحث الى هدفـه ٠

والمنهج ضرورى لحل المشـاكل العلمية والعملية ، فاذا أراد الانسان أن يحل مسـألة رياضية كان لزاما عليه أن يعـرف مناهج الرياضة ، واذا أراد أن يدرس قاعدة نحويـة كان لزاما عليه أن يعـرف منهج علم النحـو ، وهكذا ٠

والمنهج يتحددبطبيعة الموضوع الذى يبحثه الشخص ، ولـذا اختلفت المناهج وتعددت بتعـدد مجالات العلوم وموضوعاتها ، فكل فـرع من فروع العلم ، وكل نـوع من أنـواع النشاط العملى لـه مناهجه الخاصة ، ولا يمكن لشخص أن يستعين بمناهج فـرع من فروع العلم فى دراسة فرع آخـر ٠

وللفلسفة الماركسية منهجها الخاص وهو الجدل المادى ـ والماركسيون يرون أن هذا المنهج يختلف عن مناهج العلوم المختلفة ، اذ ييسر الطريق الى فهم كل ميادين الطبيعة والمجتمع والفكر ـ خلافا لمناهج العلوم المفردة التى لا تعين الا على فهم مجال واحد من مجالات العلم والعمل ٠

والجدل كان يطلق قديما على فن المناظرة بين الخصوم الذى يعتمد على كشف التناقض فى حججهم ، وهو فى عرف الماركسية : منهج لمعرفة الواقع ، اذ يدرس الكون على حقيقته ، هذا الكون المتغير دائما المتطور أبدا ٠

والماركسيون يرون أن منهجهم هذا هو المنهج العلمى الوحيد ، اذ أنه يستند الى أحدث انجازات العلم والخبرة الانسانية ، فهو يرى أن العالم فى حركة دائمة وفى تجدد مستمر ، وليس هناك شىء مطلق ، كل ما فى الكون يتطور باستمرار ويتجه فى حركته من أدنى الى أعلى ٠ وحركة الكون وتطوره الدائمان نابعان من التناقضات الكامنة فى جميع أجزائه هذه التناقضات التى تؤدى الى صراع بين الجديد والقديم ، صراع ينتهى بالانتصار الحتمى للجديد ٠

وعلى عكس العلوم الخاصة ـ التى يختص كل منها بمجال معين ـ تدرس المادية الجدلية القوانين العامة التى تقوم بدورها فى كل مجالات الوجود ، فكل ما فى الكون ـ من أشياء حية وغير حية ، وظواهر اجتماعية ، وفكر يتطور حسب قانون وحدة وصراع الاضداد ، وقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ٠

فالمادية الجدلية علم يكشف القوانين العامة التى تحكم تطور العالم المادى وطرق معرفة هذا العالم وتحوله الثورى ٠

وقد ألح « ماركس » و « انجلز » على وجود الطبيعة المادية الجدلية للتطور فى الحياة الاجتماعية ، وهو ما يسمى بالمادية التاريخية التى تكشف القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع ٠

وقد اعتمدت المادية الجدلية على ثلاثة اكتشافات علمية كبرى كان لها أثرها الذى لا ينكر فى تشكيل نظرتها الى الطبيعة ٠ هذه الاكتشافات الثلاثة هى :

١ ــ قانون بقاء الطاقة وتحولها الذى يذهب الى الوحدة المادية للعالم ، وبقاء المادة والحركة ، وقابليتهما للتحول من شكل الى آخر ٠

٢ ــ نظرية تركيب الانسجة الحية من خلايا ، فقد دلت هذه النظرية على أن أى كائن مركب يتكون من خلايا ــ والخلية عنصر مادى ، وهى قابلة للتغير ٠

٣ ــ ثم جاء « داروين » بنظرية تطور الكائنات الحية تطورا ذاتيا بعامل تنازع البقاء ، وبقاء الاصلح ٠

ومن جهة أخرى فقد تأثرت الماركسية بفلسفة « هيجل » (١٧٧٠ ــ ١٨٣١) فان « ماركس » وصديقه « انجلز » ــ وهما واضعا أسس الماركسية ــ كانا قد تأثرا فى شبابهما بفلسفة « هيجل » المثالية ، وآمنا بها ــ هذه الفلسفة التى تذهب الى أن

العالم من خلق فكـرة مجردة عن المـادة ـ هذه الفكرة هى ذات وجود موضوعى ، وجـود خارج الانسان ـ وقد أطلق « هيجل » على هذه الفكرة المجردة اسم « الوعى » ، و « الفكـرة المطلقة » ، و « الروح الشامل » ٠

ويـرى « هيجل » أن هذه الفكـرة تتطور أولا تطورا ذاتيا ، ثـم تتجسـد فى هذا العالم الطبيعى فينشأ عن هذا التجسد هذه الأشياء والظواهـر المتعددة ، ثـم تخلق الفكـرة ـ بعد ذلك ـ الانسان ـ ويـرى هيجل أن تاريخ الانسان هو عبارة عن محاولات مستمرة لادراك هذه الفكـرة الخالقة ، وأن هذا الادراك قـد تـم واكتمل فى مذهبه الفلسفى ٠

ومن جهة أخرى فان « هيجل » قـد وضـع قوانين الجـدل التى تحكم تطور الفكـرة ـ هذا التطور الذى يتجه من الادنى الى الأعلى ، كما بين أن التناقضات الداخلية هى أساس التطور ٠

وقـد اعتنق « ماركس » و « انجلز » فى البداية فلسـفة « هيجل » المثالية وتأثرا بمذهبه فى الجدلية والتطور الذاتـى ـ ثـم فى مرحلة تالية رفضـا مثالية هيجـل ـ وان اسـتمر تأثرهما بجدليته ٠

كما تأثـر « ماركس » و « انجلز » بالفيلسـوف الألمانـى « فيورباخ » (١٨٠٤ ـ ١٨٧١) وهو فيلسـوف مادى ، رفض الفلسـفة المثالية ودعـا الى اهتمام الفلسفة بدراسة الطبيعة والانسان ـ وأن هذه هى الرسالة الحقيقية للفلسـفة وليس الاكتفاء بدراسة الفكر الخالص ٠ وهو يـرى أن الانسان جـزء من الطبيعة ونتيجة لتطورهـا ٠

والطبيعة هى الحقيقة الموضوعيـة الأولى ، وهى سابقة فى الوجود على الفكر ٠

(٥) موضوع الفلسفة الماركسية

اذا تتبعنا تاريخ الفلسفة وجدنا أنها لم تثبت منذ نشأتها على موضوع واحد ، بل ان موضوع الفلسفة كان يتغير باستمرار من عصر الى عصر بل من فيلسوف الى فيلسوف ٠

فموضوع الفلسفة عند الطبيعيين الأولين من فلاسفة اليونان (طاليس ـ أنكسمندر ـ أنكسمينس ـ هيراقليطس) هو مادة الكون ، فالأول يرى أنها الماء ، والثانى يرى أنها مادة تجمع جميع الصفات ، وسماها بـ « اللامتناهى » ،وأنكسمينس يرى أنها الهواء ، بينما يذهب الأخير الى أنها النار ٠

ثم جاء « السوفسطائيون » فى القرن الخامس قبل الميلاد فحولوا الفلسفة من البحث فى الطبيعة الى البحث فى الانسان ، اذ وجدوا أن الفلاسفة السابقين لم يتفقوا على رأى واحد فى مادة الكون ، فرأوا أنه ينبغى وضع نهاية لهذا البحث الذى لا جدوى من ورائه ، وأن الواجب أن تهتم الفلسفة بدراسة الانسان من جانبين : جانب السلوك ، وجانب المهارة فى الحرفة ، وأهمها المهارة فى الخطابة وحسن التعبير وطريقة التغلب على الخصوم بالحق أو بالباطل ٠

أما « سقراط » ـ الذى وهب حياته لمنازلة السوفسطائيين ودحض أفكارهم فموضوع الفلسفة عنده هو الانسان من حيث معرفته للفضيلة ، وسلوكه تبعا لهذه المعرفة ٠

أما « أفلاطون » فموضوع الفلسفة عنده يشمل الانسان والطبيعة والمبدأ الأول ٠

وأما « ارسطو » فالفلسفة عنده تشمل جميع أنواع المعرفة

من نظرية وعملية ، ويندرج تحتها علوم الطبيعة ، والرياضة ، والآلهيات (وهى الفلسفة النظرية) والفن ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والسياسة (وهى الفلسفة العملية) ـ وقد اعتبر المنطق مقدمة ضرورية لدراسة جميع هذه الفروع .

ثم يأتى بعد ذلك « الابيقوريون » والرواقيون ليهتموا بفرع واحد من ذلك كله : الأخلاق .

وفى القرون الوسطى اهتمت الفلسفة بالجانب الآلهى فقط ، وان كان الفلاسفة الاسلاميون قد درسوا تراث « أرسطو » بجميع فروعه ، بينما اهتم بعضهم بالتصوف والأخلاق .

أما فى أوربا ـ فقد شهدت القرون الوسطى ـ فى بدايتها ـ صراعا عنيفا بين رجال الدين المسيحى والفلاسفة ، وقد انتهى هذا الصراع بتطويع الفلسفة لتكون فى خدمة الدين المسيحى .

وقد شهد العصر الحديث انفصال العلوم الخاصة عن الأم (الفلسفة) فأصبحت هناك فروع مستقلة للمعرفة لكل منها منهجه ، وذلك مثل الطبيعة ، والكيمياء ، والميكانيكا ، والجيولوجيا ، والرياضيات، والتاريخ .. الخ ، وأصبح الموضوع الأساسى للفلسفة هو العلاقة بين الفكر والوجود بين الروح والمادة .

والمقصود بكلمة الفكر هنا : « النشاط الروحى للانسان الذى يشمل أفكاره ، وعواطفه ، وانفعالاته ، وأحاسيسه ، ووجدانه ، وارادته ، وشخصيته وآراءه ويطلق عليه اسم « الوعى » ، و « الذهن » ، و « العقل » ، و « الروح » .

فالموضوع الأساسى للفلسفة الحديثة هو العلاقة بين الفكر والوجود وهو ما يسمى بالعلاقة بين الروح والمادة ٠٠ وهذا أيضا هو موضوع الفلسفة الماركسية ٠

ولما كانت الفلسفة الماركسية فلسفة مادية فهى تذهب الى أن المادة والوجود أوليان ، والفكر والروح ثانويان ٠

والفلسفة الماركسية اذ تهتم أصلا بالعلاقة بين الفكر والمادة ـ لا تقلل من عنايتها بالعلوم المفردة ، فالفلسفة الماركسية تدعى الشمول وأن منهجها هو المنهج العلمى الوحيد الصالح لدراسة الكون فى شتى مظاهره ، دراسة الكائنات الحية وغير الحية ، والمجتمع الانسانى ، والفكر ، وترى أن هذا المنهج قد أسس على أحدث الانجازات العلمية والعملية الانسانية ، وبدون الاحاطة بهذه الانجازات لا يمكن تطبيق هذا المنهج تطبيقا صحيحا ٠

وبينما يرى الفلاسفة الوضعيون أن العلم ليس بحاجة الى الفلسفة ، اذ أن له فلسفته الخاصة ـ يرى الماركسيون أنه لا يمكن الفصل بين الاثنين ، ويشبهون الفلسفة بجذع شجرة ضخم تتفرع منه مختلف العلوم ، فان قطعت الفروع لم يتبق سوى كتلة من الخشب لا حياة فيها ، وان أزيل الجذع سقطت الفروع جميعا ٠

(٦) الفلسفة الماركسية والبروليتاريا

رأينا أن الفلسفة الماركسية تقدم نفسها على أنها هى وحدها القادرة على تفسير الطبيعة والمجتمع تفسيرا علميا ، وتذهب الى أن الطبيعة والمجتمع يتطوران باستمرار تطورا ذاتيا

من الأدنى الى الأعلى ، وبالتالى فهى تقدم نفسها على أنها أداة قويـــة لاعـــادة تشكيل الطبيعة والمجتمع ثوريا ٠

وهى تـــرى أن طبقـــة البروليتاريا هى وحدها صاحبـــة المصلحة فى المعرفـــة العلمية للطبيعة والمجتمع واعادة تشكيلهما ثوريا ، ومن ثـــم فالماركسية تقـــدم نفسها على أنها ســـلاح ايديولوجى (فكرى) للبروليتاريا فى صراعهـــا ضد الرأسمالية ليقوم على أنقاضها المجتمع الاشتراكى الشيوعى ٠

ولمـــا كانت الماركسية لا تعترف بثبات النظم الاجتماعيـــة فهى تذهب الى أن الرأسمالية تسير حتما الى الفنـــاء ، وأن انتصار الاشتراكية والشـــيوعية أمر حتمى ، ولـــذا كانت الماركسية ثورية بطبيعتها ، كما أنها ترشـــد الطبقة العاملة الى أساليب بنـــاء الاشتراكية والشيوعية ٠

(٧) العلاقـــة بين المـــادة والفكر

سبق أن ذكرنـــا أن موضوع الفلسفة الماركسية هو العلاقـــة بين المـــادة والفكر ، وهو الموضوع الأساسى للفلسفة الحديثة بعد استقلال العلوم وانفصالها عن الفلسفة ٠

وقلنا أيضا ان الفلسفة الماركسية ـ لأنها فلسفة ماديـــة ـ ترى أن المـــادة سابقة فى الوجود على الفكر ، اذ الفكر ما هـــو الا طـــور من أطوار المـــادة المنظمة تنظيما فى غاية الرقى ـ أعنى المخ الانسانى ٠

وقلنا ان الفكر يعنى النشـــاط الروحى للانسان ، وهو يشمل أفكاره وآراءه وعواطفه وأحاسيسه وانفعالاته ، وكل ما لا يخضع للتشريح المادى فى الانسان ٠

ويذهب الماركسيون الى أن الفكـر هو نتيجة لتطور طويل للمـادة ، فالمادة قـد وجدت قبل الانسان ، وقـد احتاج تطور المادة الى ملايين السنوات حتىظهر انسان قـادر على التفكير ، فالفكر خاصية من خواص المـادة ـ مـادة معينة منظمـة تنظيما راقيـا ٠

فالفكر اذا مرتبط بالمـادة ، وهو خاصية من خصائص المخ الانسـانى ٠

وهم يبرهنون على هذا بأن جميع أنواع النشـاط العقلـى للانسان تقـوم على عمليات فسيولوجية تحدث بصفة خاصة فى القشرة المخية ، وأن أى اختلال يحدث للمخ نتيجة اصابته بمرض أو أذى ينتج عنه اضطراب فى الفكر ٠

ومن جهة أخرى فالفكر لا يقوم بنشاطه مستقلا عن المـادة ، بـل هو متأثر بالبيئة المادية للانسان ، فالانسان لا يحس بالطعم واللـون والرائحة الا اذا كانت موضوعاتها موجـودة فعلا ، هذه الموضوعات ـ وهى الأشياء الماديـة المرتبطة بالطعم واللون والرائحة ـ تؤثر على الحواس ، ثـم تنقل الأعصـاب هـذه التأثيرات الى القشرة المخية حيث تتكون الأحاسيس ، ثم تنشأ عن هـذه الأحاسيس المدركات والأفكار والآراء ٠٠ فالفكر اذا عملية من عمليات المادة ، لا تتم مستقلة عن المادة ٠

وقـد يتصور الانسان شيئا ليس لـه وجود فى الخـارج على هذه الصورة التى يتخيلها الانسان ، غير أن أساس هذه الصورة لابد أن يكون موجودا فى الخارج ٠

وذهب فريق من الماديين الى أن الفكـر شىء مادى يفـرزه المـخ الانسانى كما يفرز الفم اللعاب وكما تفرز العين الدموع ٠

أمـا « سبينوزا » فقد ذهب الى أن الفكـر من خواص جميع المواد ـ وليس المخ فقط ـ وذلك مثل التمدد والمغنطة .

ويذهب المثاليون الى أن الفكـر مستقل عن المـادة ، وسابق في الوجود عليها . والفكـر لـه وجود موضوعى خارجى منفصل عن المـادة ، ومن ثم فالمثاليون يقولون بالوجـود الخـارجى الموضوعى للاشياء المجردة عن المادة وهو رأى الدين .

وأن لنا سؤالا نوجهه الى هؤلاء القائلين بأن المـادة سابقة فى الوجود على الفكر ، اذا كان الامر كذلك فمن الذى أوجـد المـادة ؟ أن العالم المادى بما فيـه من نظـام بديع وتناسـق جميل لينبىء عن وجود عقل مدبر حكيم هو الذى أنشـأ هـذا العالم ونظمه ونسقه ، والافمن أين أتى هذا النظـام البـديع لهذا العالم المادى ؟ ان التنظيم والتنسيق هما من شـأن العقل وحـده ـ هذا العقل المدبر الحكيم هو ما يطلق عليـه الدين اسم « اللـه » .

ثم من أين أتاكم القـول بأسبقية المـادة فى الوجود عـلى الفكر ؟ أنتم قـوم لا تؤمنون الا بالعلم القائم على الملاحظـة والتجربة والمشاهدة ، وقولكم بأسبقية المـادة على الفكر رجم بالغيب ، وأنتم لا تعترفون بالغيب ، وصـدق الله العظيم : « ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسـهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا (١٣) .

---

(١٣) سـورة الكهف . آيـة (٥١) .

(٨) قوانين المادية الجدلية

هناك ثلاثة قوانين تعتبر القوانين الاساسية للمادة الجدلية • هذه القوانين هى :

١ ـ قانون وحدة وصراع الاضداد •

٢ ـ قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية •

٣ ـ قانون نفى النفى •

١ ـ قانون وحدة وصراع الاضداد :

هذا القانون يعنى أن التناقض ذو طبيعة عامة في جميع الاشياء والظواهر ، والكائنات الحية ، والنشاط الذهنى • والطبقات الاجتماعية •

والتناقضات الداخلية تتصارع وفى الوقت نفسه تتعايش في الشىء الواحد ، ولا يمكن تصور الضد بدون الآخر ، وذلك مثل القطبين المتضادين في المغناطيس : الشمالى والجنوبى ـ يتعارضان ويتعايشان في نفس الوقت ولا يمكن تصور مغناطيس له قطب واحد فقط •

وفى المجتمعات المختلفة نجد طبقات متضادة مثل فلاحى الارض والاقطاعيين ـ فى المجتمع الاقطاعى ، ومثل البروليتاريا والبورجوازية فى المجتمع الرأسمالى •

والصراع بين الاضداد هو المصدر الاساسى لتطور المادة والفكر والمجتمع ، فان الطبيعة المتناقضة للاضداد ، واستبعاد كل منها للاخر يستدعيان حتما وجود صراع بينها ، وذلك كالصراع بين القديم والجديد ، وبين الرأسمالية والاشتراكية •

ووحـدة الأضداد شرط للصراع ، اذ لا ينشأ الصراع الا حيث توجد جوانب متعارضة فى شىء واحد ٠

وهكذا فكل ما فى الكون يحتوى على جوانب متعارضة توجد فى الشىء الواحد جنبا الى جنب ، ويدور الصراع فيما بينها ، وهذا هو مصـدر التطور ٠

ومن التناقضات ما هو داخلى وما هو خارجى ـ ما هو عدائى ، وما هو غير عدائى ـ ما هو أساسى وما هو غير أساسى ٠

فالصراع بين الجوانب المتضـادة فى شىء معين هو تناقض داخلى والصراع بين هذا الشىء وبيئته هو تناقض خارجى ٠

والتناقضات بين طبقات اجتماعية ذات مصالح متعارضـة لا يمكن التوفيق بينها هى تناقضات عدائية ، لا يمكن حلها فى ظل النظـام الاجتماعى القائـم ، وهى لا تحـل الا بالثـورة الاجتماعية ٠ وذلك مثل التناقض ـ فى المجتمع الرأسمالى ـ بين البورجوازية والبروليتاريا ، هذه الطبقة الأخيرة يـرى الماركسيون أنها مجبرة على العمل لـدى البورجوازية التى تملك كل شىء من وسائل الانتاج ومن السيطرة السياسية وأنها تنتج كل الثروة المادية فى حين أنها لا تحصل منها الا على قـدر ضئيل للغايـة ، وهى محرومة من كـل الحقـوق السياسية ، ومن الاستمتاع بالعلم والثقافة ٠

ويذهب الماركسيون الى أن الصراع حتم بين البورجوازيـة والبروليتاريا ، لان مصـالح الطبقتين متعارضـة تمامـا : البورجوازية تعمل بكل جهدها على الابقـاء على نفوذهـا وسيطرتها السياسـية والاقتصادية والاجتماعية ، بينمـا

تحاول البروليتاريا التحرر من الاستغلال السياسى والاقتصادى والاجتماعى ـ هذا الصراع الحتمى بين هاتين الطبقتين المتعارضتين يؤدى بالضرورة الى الثورة الاشتراكية وهى وحدها القادرة على حل التناقضات العدائية للرأسمالية ٠

أما التناقضات بين طبقات اجتماعية تتوافق مصالحها الأساسية فهى تناقضات غير عدائية ، كتعارض مصالح العمال مع مصالح الفلاحين فى المجتمع الرأسمالى ، وهى لا تحل بالثورة الاجتماعية ٠ فالفلاح لديه ما يملكه من أرض وحيوانات ومعدات زراعية ، وهو حريص على هذه الملكية ، بينما لا يملك العامل شيئا يحرص عليه ـ هذا من ناحية ـ ومن جهة أخرى فان المدينة فى المجتمع الرأسمالى ـ تستغل القرية ، التى هى مصدر الغذاء ، وهى محرومة من رفاهية المدينة ٠ وهذا يجعل القرية تحقد على المدينة وتعاديها ، وبالتالى يحقد الفلاح على العامل المقيم بالمدينة ويعاديه ، ومن ثم تتعارض مصالح العمال مع مصالح الفلاحين ، اذ يحرص الفلاح على أن يبيع ما ينتجه للعامل بأعلى سعر ممكن ، بينما يحرص العامل على ان يشتريه بأقل سعر ممكن ، وهكذا يحدث الصدام بين مصالح الطبقتين فى ظل الرأسمالية ٠

غير أن هذه التناقضات **ليست عدائية** لان الفريقين ـ وان تعارضا فى بعض الأمور الا أنهم جميعا يعانون من الاستغلال ـ وهذا التلاقى يجعلهم يتساندون ويتحالفون فى صراعهم ضد النظام الرأسمالى ٠

ومن التناقضات ما هو **أساسى** وهو عند الماركسيين ـ فى عصرنا هذا عبارة عن التناقض بين قوى الاشتراكية العالمية ، وقوى الامبريالية الرأسمالية ٠ والماركسيون يرون أن الأولى

هى طريق التقدم والسلام والجهود البناءة ، وأن الثانية هى طريق الرجعية والقهر والحروب ٠

٢ ـ قانـــون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية :

الكيف هو : الخصائص التى تميز الشىء عن غيره ٠

أما الكم فهو : درجة تطور أو كثافة خصائص الشىء ٠

والتغير فى الكيف يؤدى الى تغير الشىء ٠ أمـا تغير الكـم فانه لا يلزمه دائما تغير الشىء ذاتـه ، ولكن عندما يصـل تغير الـكم الى درجة معينة ويتجاوزها ينشـأ تحـول جذرى للشىء ، أى يتحول الكم الى كيف ، وتتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ٠

والكـم والكيف صفتان لكل الأشـياء والظواهر ، وهمـا مترابطان ـ وتطـور العالم المادى ينتج عنه تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية جذرية على هيئة طفـرة ٠

ولنوضح ذلك كلـه بالمثال :

عندما تلغى الملكية الرأسمالية وتحل محلها الملكية الاشتراكية فان الصفة الأساسية للرأسمالية ـ وهى الملكية الفردية ـ تكون قـد تغيرت ، وهذا ينشأ عنه تحـول أساسى ، وهو حـلول الاشتراكية محل الرأسمالية ـ هذا تحول فى الكيف ينشأ عنه تحول الشىء من أساسـه وانتقاله الى شىء آخـر جديد ٠

ولكن عندما تتمركز الملكية الرأسمالية فى أيدى مجموعة من الاحتكاريين فهذا تغير فى الكم فى حدود معينة ، لا ينشأ عنه تحول جذرى ، لأن التحول الجديد لم يتخل عن صفة الرأسمالية ٠

ومثال تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفيـة فى العالم المـادى : عندما تزيد درجة حرارة المـاء عن مائـة درجة فان المـاء يتحول الى شىء جديد هو البخار ، لـه خصائص تختلف تماما عن المـاء ٠

والانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية عن طريق الثورة هو تحول من الكم الى الكيف ، فان زيادة نمو القوى الانتاجية ، وزيـادة عـدد العمال الثوريين ، وغير ذلك من الأمور الكمية تعـد شروطا أساسية للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، أى أن تغيرا كميا أدى الى تغير كيفى : تغير كمى فى القـوى الانتاجية ، وفى عدد العمال الثوريين نشـأ عنه تغير كيفى تمثل فى الانتقال من النظام الرأسمالى الى النظام الاشتراكى ٠

والانتقال من النظام الرأسمالى الى النظام الشيوعى يستلزم المرور أولا بالنظام الاشتراكى ـ فالمجتمع يمر بمرحلتين : الاشتراكية والشيوعية ، وهما تختلفان فى درجـة التطـور الاقتصادى ونـوع العلاقات الاقتصادية ، مع أن لهما أساسا اقتصاديا واحدا يتمثل فى الملكية الجماعيـة لوسائل الانتاج والتعاون المتبادل بين الناس ، والمذهب الواحـد غير أن هناك فوارق بين المرحلتين ، فالشيوعية هى أعلى مراحل النظـام الاجتماعى والاقتصادى الاشتراكى ففى هذه المرحلة تبلغ وسائل الانتـاج أعلى مسـتوى ، كما يبلـغ الانتاج حـدا يتكافـأ مع المبـدأ الشيوعى : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجتـه » بـدلا من المبدأ الاشتراكى : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله ، كما ينشأ لدى الأفـراد حافز ذاتى للعمل من أجل المجموع ٠ ومن جهة أخرى تحدث تحولات اجتماعية ، فلن تكون هناك فوارق بين المدينـة والريف ، ولا فوارق بين العمل اليدوى والعمل الذهنى ، ويصبح الجميع عمالا فى المجتمـع

الشيوعى ، وتختفى الدولة وتحل محلها الادارة الذاتية للشعب • وهذه التحولات لا تتم الا فى ظل مجتمع قد تحرر من الاستغلال ، أى لا تتم الا فى مجتمع اشتراكى ، وهذا يعنى أنه لا يمكن حدوث تحول من النظام الرأسمالى الى المجتمع الشيوعى دفعة واحدة بل لا بد من المرور أولا بالنظام الاشتراكى •

٣ ـ قانون نفى النفى :

النفى معناه : تغلب الجديد ـ الذى ينشأ من القديم ـ على القديم •

أما حلول الجديد محل القديم فهو **التطور** •

وكلمة **النفى** استعملها « هيجل » أولا حين قال : « ان تطور الفكرة يكمن خلف النفى » ثم جاء ماركس ليقول : « ولايمكن أن يحدث تطور فى أى مجال ما لم ينفِ أشكالاً وجوده السابقة » •

وكما ذكرنا من قبل فان الأشياء والظواهر ـ لدى المذهب الماركسى تقوم على التناقض وتتطور على أساس التناقضات الداخلية ، وهى تخلق ظروف موت القديم والانتقال الى جديد أرقى ، والنفى هو نتاج التطور الذاتى ، وهو يعنى : التغلب على القديم من خلال التناقضات الداخلية •

وقانون نفى النفى يظهر التطور كعملية متصلة حلزونية ، وهو تطور يكرر مراحل قد انقضت بالفعل لكنه يكررها بطريقة مختلفة ، وعلى أساس أرقى •

والتطور الحلزونى يظهر فى الحياة الاجتماعية ، فالمجتمع

البدائـــى كان مجتمعا خاليا من الطبقـــات ، يقوم على أساس الملكية المشتركة لوسائل الانتاج ، وقـــد أدى تطـــور الانتـــاج الى نفى هذا المجتمع بمجتمع طبقى ـ هو المجتمع العبودى ـ نفـــاه المجتمع الاقطاعى الذى نفته الرأسمالية التى تنفيهـــا الاشتراكية ، أولى مراحل الشيوعية ـ وهذا نفى للنفى ، وعود الى نقطـــة البداية ولكن فى شكل جديد ٠

وتكرار مراحل ماضية ليس عـــودة الى القديم ، بـــل هـــو ظهور لجـــــديد يختلف جـــذريا عن القـــــديم ولا يحمل الا تشـــــابها ظاهـــــريا فقط ، فالملكية المشـــــــتركة لوســـــــائل الانتاج ـ فى ظـــل الاشـــــــتراكية هى تكرار للملكية المشاعة فى المجتمع البدائى ـ ولكنه تـــكرار على أساس جديد يختلف تماما ـ ماديا ومعنويا ـ عن النظـــام الشيوعى البدائـــى ٠

فالتطور يحدث من خلال نفى الجديد للقديم ، وهذا الجديـــد يحتفظ بايجابيات القديم ويطورها ، ومن ثـــم فالتطور يأخذ طابعـــا تقدميا حلزونيا تكرر فيه المراحل العليـــا بعض جوانب المراحل الدنيا وهذا هو جوهر قانون نفى النفى ٠

هذه القوانين الثلاثة الأساسية للمادية الجدلية تفسر تطور العالم المادى وتكشف عن قـــواه المحركة ، وهى التناقضـــات الداخلية ، وتلقى الضـــوء على الطابع الحلزونى للتطور ، وأن الواقـــع يحقق التقدم بواســـطة التغيير الدائم للاوضاع الذى يتحقق بنفى الجديد للقديم ٠

(٩) الأخـــلاق الماركســـية

تبـــدأ الماركسية أولا بنقد الأسس الأخلاقية القديمة ، ثـــم تضـــع قواعد عملية ونظرية لتقيم عليها علم أخلاق جديد ٠

أ ـ أما نقد الماركسية للأخلاق القديمة فيتخلص فى النقاط الآتية :

(١) الأخلاق القديمة هى تعبير عن ظروف حياة واقعية لا يمكن تجنبها ، اذ أن قدرة الانسان على التحكم فى الطبيعة كانت محدودة ، ولذا كان لزاما على بنى الانسان أن يضعوا حدا لرغباتهم ٠

ولما كان بنو الانسان لا يزالوان ضعافا تجاه الطبيعة ، لم يكن هناك بد من اعتبار « الضرورة » « فضيلة » ، واعطاء قيمة أخلاقية للعجز الحتمى تجاه الموت ، والألم ، ومشاكل الحياة التى لا يمكن القضاء عليها ٠

ولقد كانت رغبات الفرد تتخطى باستمرار الحدود التى كانت تسمح بها ظروف الحياة ، فقد كان الفرد يتخطى دائما حد **الاعتدال** الى الافراط ، ومن ثم فقد كان ضروريا اعطاء قيمة أخلاقية ، ومعنى من معانى النظام الاجتماعى الى **الاعتدال** ، وبعبارة أخرى الى **الحد** الذى فرضته ظروف الحياة ومستوى التطور على أفراد المجتمع الانسانى ٠ أما الافراد الذين يتحررون من هذا النظام فقد كانوا أحد فريقين :

١ ـ فريق ضعاف المواهب ، والأكثر عنفا ووحشية ٠

٢ ـ فريق العباقرة ٠

ومن ثم فقد كان المجرمون والعباقرة دائما موضع اللوم الأخلاقى الذى يعبر عن « الوسط » الاجتماعى ، وهو عبارة عن مستوى التطور المادى والروحى الذى بلغه مجتمع من المجتمعات ٠

٢ ـ ومن جهة أخرى فان الأخلاق القديمة لم تكن تعبر عن

ظروف الحياة الا بصورة غير مباشرة ، غامضة ، ومن ثم فان القواعد الأخلاقية لم تظهر أبدا فى واقعها العملى وفى معناها الحقيقى ، بل كانت ترتبط دائما بمراسيم وقرارات غيبية ، وبقوى غامضة ، فالأخلاق القديمة ـ بصفة عامة ـ كانت اما لاهوتية أو ميتا فيزيقية ، والقواعد العملية للأخلاق القديمة كانت تبدو دائما فى صورة أوامر عليا ، والعمل الذى يتطابق مع المبدأ كان يخلع عليه لقب « **الفضيلة** » أما العمل الذى لا يتطابق مع المبدأ فقد كان يمنح درجة تقدرها قوة غامضة ، ويأخذ اسم « الاثم » ، « الخطيئة » ، « الرذيلة » ولقد كانت هذه الأسماء والألقاب تمنح بواسطة قوى ذات أصل غامض ، ثم ان هذه الأسماء والألقاب يصعب تحديد معناها بوضوح ٠

٣ ـ ولما كانت الأخلاق القديمة تميل دائما الى ثبات المجتمع ، فقد كانت تحارب كل جديد وغريب ، وكانت أية مبادرة من جانب المجرمين أو العباقرة ـ من جانب الهدامين أو المبدعين ـ تقابل دائما بالرفض فالأخلاق القديمة كانت تفرض دائما الأمر الواقع ، وفى مواجهتها كانت المبادرات الاجرامية والعبقرية تختلط ، ولا تتميز احداها عن الأخرى ، ولا يزال الأمر كذلك حتى يومنا هذا ، فالاستهجان الأخلاقى كان يبدأ بالضرب على يد الفرد الجرىء الذى يخالف المألوف ، فيطعنه فى فكره ، ويشكك الناس فيه ٠

٤ ـ ثم ان الاخلاق القديمة تخضع الأفعال والأفكار لعامل وهمى ـ وعلى سبيل المثال فان الصبر على الآلام يأخذ صورة « فضيلة » هى الاستسلام الرواقى أو المسيحى ٠ ومن ثم فان الموقف البسيط ، الموقف السلبى المحتم يأخذ ـ عند الأخلاقى ـ أهمية قصوى وقيمة عظمى ، وفى اللحظة التى

يصطدم فيها الانسان بالحدود الموضوعة لـه يعتقد أنه أدرك الأخلاق العليا ، ومن ثـم فالتعبير الذى يقـول : « العظمـة الأخلاقية » ، هو تعبير خـداع ، لأن الأخلاق لا عمل لها سوى تقنين وتشريع الواقـع الاجتماعى المتوسط فى لحظة مـا .

٥ ـ ومن جهة أخرى فان الأخلاق القديمة كانت تتحول الى اداة سـيطرة لطائفة خاصة أو لطبقـة معينة ، هى التى تدعى أنها تضـع هذه الأوامر الأخلاقية ، أو أنها تمثل السـلطة الغيبية ، وقـد أوضح « ماركس » أنه لـم تكن هناك أبـدا أخلاق سـادة وأخلاق عبيد ، ولكن أخلاق وضعها السـادة للعبيـد .

ولقـد كان السادة هم الرابحين دائما ، فقد كانوا يستطيعون تأويل الواجبات الأخلاقية أو التملص منها عندما تضايقهم ، ومن ثـم فقد كانت الأخلاق القديمة تتحول دائما الى نـوع من النفاق أو اللاأخلاقية .

لقد خلقت الأخلاق اللا أخلاقية . **أولا : لأنها حكمت باللاأخلاقية** على كل عمل مخالف للمألوف ، واضطرته بذلك الى أن يحـدث فى الظلام بعيدا عن أعين الرقبـاء .

ثانيا : لأن الطبقات المسيطرة كانت تتحلل دائما من القيـم التى تبقى عليها وتدعو اليها المظلومين والمحرومين .

ومن ثـم فالماركسية ترى أن الاخلاق القديمة قـد صدقـت دائما على العلاقـات والظروف القائمة وثبتتها بحيث أوقفت حركتها وجعلتها فى خدمة سيطرة الطبقـات ذات الامتيـاز الاقتصـادى والسيادة السياسية .

هذه هى أهـم الانتقادات التى وجهتها الماركسية الى الأخلاق القديمـة ٠

(ب) ولكن موقف الماركسية من المشكلة الأخلاقية ليس سلبيا فقط ولا نقديـا فحسب ، بـل انها تدعو الى وضـع « علم أخلاق جديد » متحرر من الشعوذة الأخلاقية ومن الوهم المذهبى ، يرفض وضع قيم **خارجا عن الواقع** بـل يبحث **داخل الواقع** عن الأسس التى تنبنى عليها المقاييس الأخلاقية ٠ فما هى هذه الأسس ؟ ٠

١ ـ يقول الماركسيون : انه فى مجتمعنا الحديث المقسـم الى طبقات تلعب طبقة « البروليتاريا » دورا هاما ٠ هـذه الطبقـة وحدها هى التى تستطيع بواسطة نشاطها أن تضـع نهاية للشعوذة الأخلاقية لأنها تحياها وتئن تحت وطأتها ، وهى وحدها قـادرة على تحرير المجتمع والانسـان بتحررهـا هى ، لأنها تحمل كل أثقـال الظلم والاستغلال ٠

٢ ـ ولقـد قبلت هذه الطبقة ـ وقتـا طويلا ـ بوصفهـا طبقة مظلومة ـ القيم الأخلاقية التى فرضت عليها وأبقت عليها فى دائرة الهوان : استسلام ، ذلـة ، قبول سلبى ٠٠ الخ ٠ ، ولقد كان العامل ـ بوصفه جزءا من الطبقة المستعبدة ـ يجـد فى الأخلاق تعويضا مصطنعا وهميا ، لقـد كان يوصف بأنه « فاضل » ، و « عامل صالح » و « أمين » عندما يقبل ـ بدون اعتراض ـ الحدود الضيقـة المعوقة لنشاطه ٠

٣ ـ ومن جهة أخرى فان الطبقة العاملة ـ بوصفها طبقـة مهضومة ـ لـم تصل الى صنع قيمها الخاصة بهـا ولا الى فرضها ، فالعمل ـ وخاصة العمل اليدوى لـم يحصل على ما يستحقه من احترام ، بـل بالعكس لـم يكن ينال الا كل

احتقار ، والمرأة بقيت مستعبدة ، مستغلة ، فالأمومة لم تحصل على حق الاعتراف بها كوظيفة اجتماعية وكقيمة سامية ، والخدمة المنزلية لم يعترف بها كعمل اجتماعى ٠

٤ ـ ومن هنا فان الطبقة العاملة الصاعدة ينبغى أن تتصرف بطريقة أخرى ، وتتحرر من القيم الوهمية التى أشرنا اليها وتصنع قيمها الخاصة بها كما تصنع بطولتها وفضائلها ، فالعامل بوصفه انسانا مستغلا مستعبدا لا يحتاج الا الى الصبر والاستسلام ، ولكن بوصفه انسانا يشعر بمسئوليته تجاه طبقته ، وبالتالى بالدور التاريخى لهذه الطبقة ـ فانه فى حاجة الى الشجاعة ، والاحساس بالمسئولية ، والحماس ، انه فى حاجة الى كسب معارف كثيرة والى اعتبار الوضوح فى العمل وفهم المواقف كقيم أخلاقية سامية ٠

ان العامل المقهور الراضى بالظلم يعتبر الطاعة فضيلة ، ولكنه عندما ينتفض عن طريق الصراع الاقتصادى والسياسى فان النظام والمبادرة ، والشعور بالمسئولية تصبح لديه حتما قيما أخلاقية يجب عليه اكتسابها ، وهو بهذا يساهم فى وضع « أخلاق جديدة » تتمكن من حل المشاكل العصية على الحل ـ فى الظاهر ـ وعلى سبيل المثال فان حتمية التوحيد بين النظام الجماعى والمبادرة الفردية تستطيع حل الخلاف القديم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ٠

٥ ـ ولكن هل يمكن وضع قيم أخلاقية بناء على الواقع بدلا من تأسيسها على المثالية المجردة ؟ الماركسيون يجيبون بالايجاب ويضيفون أن المثالية التقليدية ـ التى يعتبرها الماركسيون احدى الصور المذهبية الميتافيزيقية ، للخبل الانسانى ـ هى وحدها التى تضع المثال خارج الواقع ٠

والماركسية ترى بنـــاء على هذا ـ أن الإستسلام والسلبية لـم يعودا بعد من الفضائل ـ لقد كانا فضيلتين عندما لـم يكن ممكنا الا ذلك ، أما الآن فقد أصبح شيء آخر ممكنا ، ان سيطرة الانســان على الطبيعة أصبحت من القـوة بحيث أضـحى الاستسلام والسلبية محكوما عليهما بالانسحاب والدخول فى دائرة « اللامعقول » ٠

٦ ـ وتدافع الماركســية عن نفسها ضـد من يضفون على « أخلاقها » صفــة الضعف والعاطفية اذ تحنــو على العامــل المظلوم وتبكى على قهره واستغلاله ، فتوضح أنها لا تهتــم بالعامل باعتباره ضعيفا جاهلا محكوما عليه من البورجوازيــة بالالقــاء فى مستنقع اللاانسانية ، بــل بوصفه قـوة يجب أن تتمثل المعارف الانسانية وتغنيها بالاضافة اليها ، قــوة تحمل فى داخلها مستقبل الانسان ، وتلقى فى مستنقع اللاانسانية غرور « البورجوازية » وخيلاءها فالمــاركسية اذا ترى فى طبقة العمال كل مستقبلها وطاقاتها ٠

وهكذا فالماركسية ترى أنــه فى المذهب الفردى ذى الأصــل البورجوازى أخذ الوهم المذهبى الأخلاقى الميتافيزيقى أبعــادا هائلة فان الفرد كان يعتقــد فى نفسه الكمال فى الوقت الذى لا يزال فيــه فى دور التخطيط الذى يسبق أى مشروع ٠

(١٠) المــادية التاريخيــة

المادية التاريخية هو الاسم الذى يطلق على الماركســية بوصفها علــم اجتماع مؤسسا على قواعد علمية ٠

وعلــم الاجتماع الماركسىّ يرى أنه لا يوجــد الا الافــراد وعلاقاتهم ، أمــا المجتمع فلا وجود لــه خارج الأفراد الذيــن

يتكون منهم لا وجود اذا لما يسمى بروح الشعوب او روح الجماعة • انها أوصاف غيبية قد تخيلها علماء الاجتماع الذين يعتقدون فى أنفسهم صفة « العلمية » فى حين أنهم ـ فى واقع الأمر ـ ليسوا الا ميتافيزيقيين •

ترى الماركسية ان الافراد هم الذين يصنعون حياتهم الاجتماعية وتاريخهم والتاريخ العام ، ولكنهم لا يصنعون التاريخ فى الظروف التى يختارونها بأنفسهم وباراداتهم ـ فالانسان منذ بدء البشرية ـ سواء أكان فرديا أم اجتماعيا ـ هو كائن ذو نشاط ، بيد أن نشاطه ليس كاملا ولا حرا • ففى كل نشاط واقعى لكل انسان لا يمكننا أن نتجاهل وجود شىء من السلبية التى تقل شيئا فشيئا مع التقدم الانسانى فى مجال القوة والشعور ، ولكن هذه السلبية لا تختفى أبدا ، وبعبارة أخرى : ينبغى أن نحلل جدليا كل أنواع النشاط الانسانى ، فالنشاط والسلبية يتجاوران ويختلطان فى كل عمل •

والفرد يخضع لظروف خارجة عن ارادته أثناء محاولة التحكم فى الطبيعة والعالم الذى يحيط به ، من هذه الظروف : الطبيعة ذاتها ، وطبيعته هو نفسه ، والأفراد الذين يحيطون به ، وطريقة النشاط ووسائله : (الآلة ـ تقسيم العمل وتنظيمه ••• الخ) •

وأفراد النوع الانسانى يدخلون فى علاقات اجتماعية محددة بسبب نشاطاتهم المختلفة ، وهم لا يستطيعون الانفصال عن هذه العلاقات اذ أن وجودهم يتوقف عليها كما تتوقف عليها طبيعة نشاطهم وحدوده وامكانياته ، ومن ثم فان العلاقات التى يدخلون فيها حتما ـ اذ أنهم لا يستطيعون الفكاك منها ـ تشكل **الوجود الاجتماعى** لكل فرد ، هذا الوجود الاجتماعى هو الذى يحدد الشعور وليس العكس ، وهكذا فالفلاح له

شعور وأفكار الفلاح ، وليس شعوره ولا أفكاره هى التى تصنع علاقته بالارض ، ولا تنظيم عمله ، ولا آلاته ، ولا علاقاته بجيرانه ، وبقريته ، وباقليمه ، وبوطنه ·· الخ ·

ولكن ، ما هى هذه العلاقات الاجتماعية أساسا ؟ انها علاقات فى غاية التعقيد · هل يمكن تمييز الأساسى منها من غير الأساسى ؟ تجيب الماركسية بالايجاب ، فهناك علاقات أساسية ، اذ أن بناء كل مجتمع يقوم على قاعدة ، **والعلاقات الأساسية** فى كل مجتمع هى عبارة عن علاقاته **مع الطبيعة** ، فهى أساسية بالنسبة للانسان لانه يصارع الطبيعة ، وهو فى هذا الصراع ـ وفى الظروف الطبيعية ـ ينتزع من الطبيعة ما يجب انتزاعه ليحفظ حياته ، ووسيلته فى ذلك هو العمل وأدوات العمل وتنظيم العمل ، وهكذا فالانسان ينتج حياته بدون أن ينفصل عن الطبيعة ·

ومن ثم فان العلاقات الأساسية لكل مجتمع هى **علاقات انتاج** تمثل العلاقات الأساسية للانسان مع الطبيعة ، وللانسان مع أخيه الانسان فى العمل ·

هذه العلاقات ـ علاقات الانتاج ـ تتوقف على ثلاثة عوامل :

١ ـ الظروف الطبيعية ·

٢ ـ الظروف التكنولوجية ·

٣ ـ تنظيم وتوزيع العمل ·

هذه العوامل الثلاثة تشكل ما يسمى فى عرف الماركسية : **القوى الانتاجية** لمجتمع من المجتمعات ·

هذه القوى الانتاجية تتطور مع الزمن ، وهى فى تطورها

تحتفظ بخصائص المسيرة الطبيعية للتاريخ ، اذ لا يمكن التحكم فى هذا التطـور ولا الشعور بـه ولا يخضع لارادة الانسان ـ مع أنـه يتعلق بنشاطه وبنتائج هذا النشاط ـ وهذا بعينـه يتطابق مع مسيرة تاريخ الشعوب والنظم والافكار ٠

ونمـو القوى الانتاجية وسيطرة الانسان على الطبيعة يمـر بمراحل ومستويات فهذه القوى الانتاجية وتلك السـيطرة تتوقف على مستوى الحضارة الذى يدركه مجتمع مـا ، ولذلك كانت لها أهمية تاريخية كبرى ، اذ أنها تحقق الوجود الاجتماعى للانسان فى لحظة مـا ، وبالتالى فهى تحقق الصيغة التى يبرز فيها شعوره وثقافته ٠

أمـا العامل الثالث ـ وهو تنظيم وتوزيع العمل ـ فهو يرتبط بظاهرة اجتماعية فى غاية الاهمية ، اذ انه يتضمن وجـود **الملكية الخاصة** ،لأن الآلات ووسائل الانتاج اذ تتنوع وتتعدد تصبح تحت سيطرة مجموعات وأفراد متنوعين ٠٠ ومتعددين ٠ والأرض أيضا ـ بوصفها احدى وسائل الانتاج ـ تلقى نفس المصير ٠ وتقسيم العمل آنذاك يعنى عـدم المسـاواة فى العمل ، فوظائف الحكم مثلا تتميز عن العمل اليدوى ٠ وهذا التنوع فى العمل بين عمل راق وعمل منحط لا تثريب عليه لـو أنـه يتوقف على مستوى تطـور الفرد ، ولـو أن الوظائف العليا اسـندت الى الأفراد الأكثر كفاءة للقيام بهذه الأعمال (وهو ما يحدث غالبـا فى المجتمعات البدائية) ٠ ولكن لمـا كان تنوع الأعمال بين راقية ومنحطة يصحب تكون الملكية الفردية فاننا نجد ـ على مدى التطور التاريخى ـ أن هاتين الظاهرتين الاجتماعيتين تؤثـر احداهما فى الأخـرى ، فالوظائف العليا تسمح باحتكار وسائل الانتاج التى تصبح وراثيـة وتنتقل الى الورثـة كالعقارات ، والأعمال اليدوية تجد نفسها مستبعدة عن الملكية

كما استبعدت عن الوظائف العليا التى لم تعد تسند الى الأفراد الأكثر كفاءة ، ولكن الى الأفراد والمجموعات حسب درجتهم فى الملكية ـ وبعبارة أخرى فان الافراد يصلون الى الوظائف العلمية والسياسية والادارية بسبب ثروتهم وملكيتهم الخاصة لا بسبب قيمتهم الاجتماعية • ومن هنا تظهر **الطبقات** •

والبناء الاجتماعى ـ الذى لم يعد ينظر اليه باعتبار علاقته بالطبيعة ، وهو ما يطلق عليه القوى الانتاجية ، ولكن باعتباره تنظيما للملكية وللوظائف الاجتماعية وللطبقات ـ هذا البناء الاجتماعى يسميه « ماركس » **طريقة الانتاج** •

ومن هنا يتبين لنا أن القوى الانتاجية وطريقة الانتاج أمران متلازمان لا يمكن الفصل بينهما ، فالقوى الانتاجية تحدد طريقة الانتاج ، كما أن الآلة وتوزيع العمل أمران مترابطان ، ومع ذلك فان هذه الأمور كلها تتمتع باستقلال نسبى ويؤثر كل منها فى الآخر ، فكما أن توزيع العمل يتطور مستقلا عن الآلة ، كذلك فان طريقة الانتاج تتغير مستقلة عن القوى الانتاجية •

وقد أشار « ماركس » الى التعاقب التاريخى لعدد من **طرق الانتاج** ـ هذا التعاقب قائم على أساس من التطور التدريجى للقوى الانتاجية ، وعلى التحليل لبناء توزيع العمل والملكية والوظائف الاجتماعية والطبقات :

١ ـ فلنترك جانبا **الشيوعية البدائية** لنرى ظهور ما يسمى بالطريقة القبلية للانتاج التى تمتاز بصورة خاصة للملكية وهى ملكية العائلة أو القبيلة ، كما تمتاز أيضا بتنوع الوظائف والطبقات ، ففيها تظهر سيادة الرجال وسلطة القبيلة أو رب الاسرة •

٢ ـ ثـم يلى ذلك ظهور الاقتصاد القائم على الرق ـ وهو **ما يسمى بالمجتمع** العبودى ضمن ظروف من التقـدم الفنى تسمح باستخدام الرقيق • هذا النوع من الاقتصـاد يتجـه نحو تكوين طبقة من السـادة ، والانتقال الوراثى لوظائـف القيادة العسكرية والسياسية والوظائف العلمية والملكية •

٣ ـ يأتى بعد ذلك **الاقتصاد الاقطاعى**، وهو يتضمن استغلال طبقـة عسكرية لطبقـة من المنتجين المرتبطين بالارض وهـم فلاحـو الأرض •

٤ ـ ثـم يأتى بعد ذلك **الاقتصاد الرأسمالى** •

غير أن هذا التعاقب التاريخى لطرق الانتـاج وجـد بصـفة خاصةفىأوربا الغربية، وقدتعايشت هذهالطرق المختلفة وأثرت كل واحدة فى الأخـرى بدون وجود حدود بينها رغم تمايزها • ثـم ان بعض هذه الطرق يحتوى على فـروق داخلية ، فالاقطاع الآسيوى يختلف عن الاقطاع الأوربى • وكل واحـدة من هـذه الطرق قـد مـرت بمراحل متعددة من النمو والازدهار والانحدار ثـم الأزمة القاضية •

وعندما نحلل **القوى الانتاجية** نجد أن نوعـا من الصراع يحتل المكان الأول ، هو صراع الانسان ضد الطبيعة •

وعند تحليل **طرق الانتاج** نجد أن هناك أنواعـا متعددة من الصراع ، أهمها هو **صراع الطبقات الاجتماعية**، صراع الانسان ضد الانسان ، كما نلاحظ استغلال الانسان للانسان الـذى يبدو كظاهرة أساسية •

وعند تحليل البنـاء الاقتصـادى الاجتماعـى لمجتمع مـن المجتمعات نلاحظ ثلاثة جوانب :

١ ـ جانب طبعى حيوى تلقائى هو عبارة عن العلاقة العملية بين الانسان والطبيعة وسيطرته عليها التى تنمو وتتزايد مع تطور النوع الانسانى ٠

٢ ـ جانب ناشىء عن التدبر والتفكير ، وهو عبارة عن التطور التكنيكى ، وتكوين المعرفة العلمية والعقل والثقافة ٠

٣ ـ جانب وهمى وهو عبارة عن توزيع العمل الذى ينشأ عنه الأوهام المذهبية ، اذ أنه فى اللحظة التى يظهر فيها العمل العقلى ـ عند توزيع العمل ـ ويتجه الى التخصص ، فان الشعور يتحرر من الواقع ويتخيل أنه شىء آخر غير شعور العالم الانسانى ويندفع نحو السحب المذهبية ٠

البناء الفوقى للمجتمع :

وهناك ما يسمى بالبناء الفوقى للمجتمع وهو عبارة عن مجموعة القوانين والأفكار الناشئة عن الاحداث التاريخية والمبادرات الفردية فى اطار بناء اجتماعى معين ، وهو يتضمن بصفة خاصة النظم القضائية والسياسية والمذاهب والأديان ٠

والبناء الفوقى يعبر عن **طريقة الانتاج** أى عن **علاقات** الملكية ٠ فالمذاهب تعبر عن هذه العلاقات ، خصوصا عندما تكون المظاهر المذهبية مقصودة لاخفاء حقيقة هذه العلاقات ٠

هناك اذا ثلاثة عناصر لكل نظام اقتصادى اجتماعى ، عناصر متمايزه مع أنها مترابطة أى أنها تتصارع باستمرار ويؤثر بعضها فى بعض ، هذه العناصر الثلاثة هى :

١ ـ القوى الانتاجية ٠ ٢ ـ طريقة الانتاج ٠
٣ ـ البناء الفوقى ٠

(١١) الاقتصـــاد الماركسى

(أ) نقــد الاقتصاد الرأسمالى :

يذهب الماركسيون الى أن النظام الرأسمالى يبدو لنا فــى الظاهر بسيطا واضحا مألوفا ، ولكنها مجرد مظاهر خداعــة ، اذ أن هذا النظــام ــ فى حقيقة الأمــر ، وعند التحليل العلمى ــ يبدو فى غاية التعقيد ، فالشخص العادى الذى ينخدع بالمظاهر والذى لا يغوص فى أعماق الرأسمالية ليكتشف حقيقتها لا يرى فى هذا النظــام الا ما هو بسيط وواضح ومألوف ، فهنــاك النقود ، والثروة والممتلكات ، وآلات الانتاج ، وأناس يعملون ، وآخرون لا يعملون ، وهذا كله فى غايــة الوضوح والبساطة والالف .

هذا هو موقف الانسان البسيط العادى من هذا النظــام ، أما الاقتصاديون المحترفون من غير الماركسيين فانهم يصلون الى اكتشاف بعض الجوانب المعقدة فى هذا النظــام ، ولكن نقدهم لــه يحتاج الى كثير من التطوير ، وهو يتجافى عن المعرفــة العقلية ، فهم فى الواقع يتأرجحون ويترددون بين نوعين من الفهم ، **فالبعض منهم** يتحدث عن تخبط الحقائق الاقتصــادية غير المترابطة التى ينفصل بعضها عن بعض ، وتنفصل جملة عن النشاط الانسانى فهى بالتالى ساكنة وبــدون حيــاة ، **وآخرون منهم** ،وهم المنتمون الى المدرسة الليبرالية يحاولون بكل عنــاد أن يجدوا نوعــا من الاتســاق والانسجام ، أو قانونــا للانسجام بين هذه الحقائق الاقتصادية المنفصــلة ، وكــلا الفريقين ــ على أيــة حال ــ يتجه الى وصف الرأسمالية من الداخل باعتبارهــا حقيقــة ثابتة لا يمكن التحكم فيهــا ولا السيطرة عليها ، كــلا الفريقين ــ من جهة أخرى ــ يميــل

الى اضفـاء أهمية قصوى على ظواهر اقتصادية اعتباريـة مثل مبادرات الافراد ، ومقاصد المشترين والبائعين ، وحاجات ورغبـات الافراد ... الخ .

صحيح أن السلعة الاقتصادية ـ كالعقار مثلا ـ تستدعى وجود مبادرات ، ورغبات ، وتفضيلات ، ولكن هذه الأحوال النفسية ـ لا تصنع هى السلعة ـ وفضلا عن ذلك فان الحاجة أو الرغبة نفسيهما ينبغى تفسيرهمـاـوهما فى الواقع تفسران ـ بالتاريـخ الاجتماعى للانسان .

ان اساس وجود أى مذهب مثالى هو أن التفكير غير الجدلى يعزل ويفصل الفاعل عن المفعول ، والفكر عن الطبيعة ، والعقل عن الصيرورة والتحول ، والشعور عن شروطـه الموضوعيـة ، فالاقتصاديون المنتمون الى المدرسة المثالية يعزلون الاقتصـاد وعلم الاقتصاد ويبعدونهما ليس فقط عن كل منهجية عامة ، بـل عن كل ما هو انسانى وعن التاريخ الانسانى . فهم عندما يفصلون ـ عن طريق الوصف أو التحليل السطحى ـ بين حقائق اقتصادية ، فانهم بهذا لا يضيفون شيئا ذا بـال الى علـم الاقتصـاد السياسى القائم على أسس علمية .

أمـا الماركسيون فعلى العكس من هذا يؤكدون أنه لا توجد حقائق اقتصادية قابلة للعزل ، فعند ماركس ـ خلافا للشائع ـ لا يتمتع علـم الاقتصاد السياسى بأى حق لاعتبـاره علمـا مستقلا قائما على حقائـق اقتصادية مدعـاة . اذا ما هـو ؟ انه علم تاريخى يكتشف قوانين تاريخية أى قوانين صيرورة ، ويهتم بنظام اقتصادى اجتماعى معين ـ وهو الرأسمالية من حيث بناؤها ومن حيث صيرورتها .

ومن هنـا يتضح لماذا كانت الرأسمالية عاجزة عن أن تعرف

علميـــا الا لهؤلاء الذين يضعونها فى اطـار الصيرورة والتاريخ ، هؤلاء الذين يتناولون ولادتها ونموها وازدهارها ثـم انحدارها وأخيرا اختفاءها ، وبعبارة أخرى : هؤلاء الذين يحددونها فى اطـار تاريخها الكلى ٠

ان البناء الجدلى (التناقضى) للرأسمالية يتـم اكتشافه عندما يتم التوقف عن عـزل بعض الحقائق مع اضفاء أسـماء فخمة عليها مثل : حقائـق اقتصادية ، عوامـل اقتصادية ، نشـاط اقتصادى ، وهلم جـرا ٠

فعلى سبيل المثال ، عندما نتناول أحد الرأسماليين الصناعيين الذى يعمل على تجديد آلات مصنعـه ، ويشترى ماكينـات حديثة ، ويستثمر رؤوس أموال جمعها من أرباح سابقة أو اقترضها ، فالاقتصاد الرأسمالى ينتهز الفرصة لوصف النشاط الاقتصادى لهذا الفرد ومبادرته الحرة وحرصه على أن لا يستهلك كل أرباحه وانسجام المصالح الذى جعله يجـد من يقرضـه نقـودا فى اللحظـة التى أراد فيها أن يقترض ٠

ولكننا عندما نكف عن الفصل بين هذه الحقائق الاقتصادية وعن وصفجوانبها النفسية السطحيةفاننا سنجدأن الرأسمالى الذى يجـدد آلات مصـنعه لا يتصرف غالبـا بنـاء علـى حريـة المبـادرة الفردية ، فان حريـة المبـادرة عند هـذا الرأسمالى تنحصر فى رغبته فى الحصول على ايراد سريـع لانتاج الآلـة ، وأن يزيد من قوة العمل ، ويزيد من استغلال عماله بقـدر ما يستطيع ـ فهو عندما يجدد آلاتـه فلانه مضطر الى ذلك ، لماذا ؟ لأن عماله يقاومون زيـادة العمل ، وبسـبب المنافسـة مع غيره من الرأسماليين ، وبعبارة أخرى فان حرية المبـادرة لـدى هذا الرأسمالى ليست الا جانبا شخصيا سطحيا لشىء أوسـع وأكثر موضوعيـة وتناقضا ـ أعنى تناقضات الطبقات ، وتناقضات داخل الطبقـة الرأسمالية بسـبب وجود المنافسـة ٠

والرأسمالية الاحتكارية تقدم لنا ظواهر أصلية فى هذا المجال والماركسية توضح كيف أن الرأسمالية الاحتكارية قد نشأت ـ بطريق الحتمية ـ عن الرأسمالية القائمة على حرية المنافسة ، وكيف أنها رأسمالية فى طريق الانحدار ، أو بعبارة أوضح : فى طريق الانحدار الحتمى للرأسمالية ٠

والميل الى التوازن فى المجتمع الرأسمالى هو نزاع دائم مع الميل الى هدم هذا التوازن ، وهذا الأخير ينتصر حتما عندما تظهر أزمات دورية تقليدية ثم الأزمة العامة التى تهز الرأسمالية فى اللحظة التى يستخدم فيها تناقض رأس المال (الاحتكارات) الخداع المذهبى من أجل تنظيم داخلى لرأس المال ٠

ان المجتمع البورجوازى قد تكون فى لحظة معينة من التاريخ على أساس من تطور القوى الانتاجية ، ولقد كان للبورجوازية رسالة تاريخية هى عبارة عن تطوير هذه القوى الانتاجية بتحطيم حواجز طريقة الانتاج الرأسمالية السابقة ٠ ومنذ ذاك الحين فان طريقة الانتاج الرأسمالية قد أصبحت بدورها عائقا لتطوير قوى الانتاج ، اذ أن طريقة الانتاج تدخل فى خلاف دائم مع قوى الانتاج وهو خلاف واجب الحل ٠ ان الرسالة التاريخية للبورجوازية قد انتهت ، ولأنها طبقة فى طريق الانحدار فانها لم تعد تدافع عن نفسها الا بالعنف أو الحيلة ، اذ أن الظروف التى كانت تسمح بسيطرتها قد انتهت ٠ لقد أصبحت « البروليتاريا » هى صاحبة الرسالة التاريخية لحل الخلاف وللمصالحة بين طريقة الانتاج وبين القوى الانتاجية المتضاعفة ٠

ومن ثم فان الشيوعية تعدل وتقوم الطابع الاجتماعى للعمل الذى يدخل فى تناقض مع الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ،

انها تتجاوز التوزيع الجزئى للعمل ، وبعبارة أخرى : ان هذا التوزيع الجزئى للعمل الذى كان يحدد الملكية الخاصة لوسائل الانتاج قد انتهى باختراع الماكينات الحديثة والمصانع الكبرى ، وهو يتجه الآن نحو صور جديدة • ان النشاط التحررى لطبقة « البروليتاريا » هو وحده القادر على تحقيق هذه الصور الجديدة ، ومن هنا يتضح أن القوانين الداخلية للرأسمالية هى قوانين تاريخية جدلية ، هى قوانين صيرورة وتحول تقود المجتمع من خلال تناقضات متعددة نحو نهاية حتمية لهذا النظام •

(ب) بعد هذا النقد الذى توجهه الماركسية الى النظام الاقتصادى الرأسمالى يمكننا أن نتحدث بايجاز عن المبادىء الأساسية للاقتصاد الماركسى :

١ ـ جدلية قوى الانتاج وعلاقات الانتاج :

ان عدد الناس فى هذا الكون يتزايد باستمرار كما تتزايد احتياجاتهم ، فالانسان البدائى كان قليل الحاجات : طعام خشن وجلد حيوان ومأوى ونار • أما فى يومنا هذا فان المطالب المادية والمعنوية للانسان قد تضخمت جدا ولا توجد وسيلة لاجابة هذه المطالب الا التوسع المستمر فى الانتاج والتحسين الدائم له ، وتاريخ المجتمع الانسانى ما هو الا عبارة عن تطور الانتاج •

وتطور الانتاج يبدأ بتغير فى القوى الانتاجية التى تتكون من أدوات الانتاج والعمال ، وتطور الأدوات يبدأ أولا بقصد الحصول على أقصى ما يمكن من الثروة المادية بأقل جهد مبذول ، ومع تحسن أدوات الانتاج يتطور الناس الذين يستخدمون هذه الأدوات حيث تزيد خبراتهم ومعارفهم ، ثم

تتغير علاقات الانتاج التى هى عبارة عن العلاقات بين الناس فى العمل ٠

وعلاقات الانتاج أشد بطئا فى التطور ، وهى لا تستطيع مسايرة تطور القوى الانتاجية لأنها أكثر ثباتا فتدخل فى تناقض معها ، وكلما ازداد تطور القوى الانتاجية ازدادت حدة التناقضات بينهما حتى تصل الى نزاع ويصبح حتميا قيام ثورة اجتماعية تقضى على علاقات الانتاج القديمة وتقيم على أنقاضها علاقات انتاج جديدة ٠

٢ ـ العلاقة بين البناء التحتى والبناء الفوقى :

البناء التحتى لمجتمع ما هو عبارة عن علاقات الانتاج المادية ، وهى التى تشكل البناء الاقتصادى للمجتمع ، ويتحدد شكل هذا البناء بحالة القوى الانتاجية ٠

والبناء التحتى هو الأساس الذى يقوم عليه **البناء الفوقى** ، وهو عبارة عن مجموع الأفكار السياسية والقانونية والفلسفية والأخلاقية والدينية للمجتمع ، كما يتناول العلاقات والتنظيمات التى تتفق مع هذه الأفكار ، وله دور هام فى التعبير عن موقف الناس من البناء التحتى ، فالآراء المختلفة تساهم فى دعم أو تحطيم البناء التحتى ، كما أن البناء الفوقى له أهميته الكبرى فى تطوير القوى الانتاجية ٠

٣ ـ الاشتراكية :

مع النمو الهائل لقوى الانتاج فى المجتمع الرأسمالى تعجز علاقات الانتاج عن التوافق معها ، وتتحول الى معوقات لتطورها ، ومن ثم ينشأ التناقض بينهما ، حيث نجد الملايين من العمال يبذلون من جهدهم فى مصانع كبرى ويشتركون فى

الانتاج فى الوقت الذى تمتلك فيه ثمار عملهم مجموعة صغيرة ممن يملكون وسائل الانتاج ، ومن هنا يحدث التناقض الأساسى للرأسمالية ٠

وفى نهاية القرن التاسع عشر ظهرت « الامبريالية » التى هى عبارة عن آخر مراحل الرأسمالية ، اذ تقوم « الامبريالية » على سيطرة الاحتكارات بدلا من المنافسة الحرة ، فتقوم اتحادات ضخمة للرأسماليين يحتكرون انتاج وتسويق الجانب الرئيسى لسلعة ما بهدف الحصول على أعلى الأرباح ، ولهذا يبالغ « الامبرياليون » فى استغلال الطبقة العاملة فى بلدانهم وفى المستعمرات التابعة لها ٠

واذا كانت هناك تناقضات بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج فى المجتمع الرأسمالى فان الامبريالية تزيد من حدة هذه التناقضات التى تؤدى الى البطالة والأزمات الاقتصادية التى تنتهى الى صراع عنيف بين « البورجوازية » و « البروليتاريا » وتشكل الأساس الاقتصادى للثورة الاشتراكية ٠

والانتاج الاشتراكى يقوم على الملكية الجماعية ، والأسس التى يقوم عليها المجتمع الاشتراكى تتشكل فى ظل النظام الرأسمالى ـ وهى عبارة عن الزيادة الكبيرة فى الانتاج الآلى ودرجة عالية من تركيز العمل وتوزيعه ومن التقدم العلمى والتكنيكى ٠ كما أن الطبقة التى تقوم بالثورة الاشتراكية ـ وهى طبقة العمال ـ تتكون فى ظل النظام الرأسمالى وتقوم بتنظيم حزبها ٠

وهناك شكلان للملكية الاشتراكية :

١ ـ ملكية الدولة ، وهى ملكية تنتمى الى الشعب كله ممثلا فى الدولة الاشتراكية ٠

٢ ـ ملكية المزارع الجماعية التعاونية ٠

والمبدأ الاشتراكى فى التوزيع هو : من لا يعمل لا يأكل ٠

وعلاقات الانتاج الاشتراكية تقوم على :

١ ـ الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ٠

٢ ـ المساعدة المتبادلة بين الشعب العامل المتحرر من الاستغلال ٠

٣ ـ المبدأ الاشتراكى : « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » ٠

وهى بهذا تقضى على ما يسمى بالتناقض العدائى بين الطابع الجماعى للانتاج والملكية الخاصة ، هذا التناقض العدائى الذى هو أبرز سمات الرأسمالية ٠

٤ ـ دكتاتورية « البروليتاريا » :

دكتاتورية « البروليتاريا » ـ بمعنى استيلاء طبقة العمال على السلطة السياسية ـ تشكل أحد الشروط الأساسية للاقتصاد الاشتراكى ، اذ تتركز وسائل الانتاج الأساسية فى يد الدولة « البروليتارية » التى تنظم علاقات الانتاج الاشتراكية فى المدينة والريف بأسلوب مخطط ٠

٥ ـ الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية :

ان البناء « الفوقى » للدولة الاشتراكية يعتبر عاملا هاما فى بناء الشيوعية ٠ والمجتمع الاشتراكى ـ معتمدا على هذا

البناء الفوقى ينمو متجها نحو الشيوعية التى تعتبر المرحلة العليا للاشتراكية ، ويعتمد ذلك أيضا على تطور الانتاج الاشتراكى الى الانتاج الشيوعى أى بناء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية .

والشيوعية تعنى وفرة الثروة حتى يتحقق الاشباع الكامل لمطالب الناس ، ومن ثم كان بناء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية هو المهمة الاقتصادية الأساسية للبناء الشيوعى ، هذا البناء الذى ييسر تطوير علاقات الانتاج وتكوين مجتمع خال من الطبقات ، والقضاء على الفروق بين المدينة والقرية وبين العمل الذهنى والعمل اليدوى .

وتستند كل من علاقات الانتاج الاشتراكية والشيوعية على الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، لكن تمتاز الشيوعية بأن الملكية فى ظلها ذات نوع واحد ، هى ملكية شيوعية تخص كل أفراد المجتمع بدلا من ملكية الدولة والملكية التعاونية فى ظل الاشتراكية .

ولكن **ما هى الشيوعية ؟**

يرى الماركسيون أن الشيوعية هى « نظام اجتماعى لا طبقى يسوده شكل واحد من أشكال الملكية العامة لوسائل الانتاج ، ومساواة اجتماعية كاملة للجميع ، وفى ظلها سيصاحب التطوير الشامل للشعب نمو القوى الانتاجية من خلال التقدم المستمر للعلم والتكنولوجيا ، وسوف تفيض منابع الثروة التعاونية بوفرة متزايدة وينفذ المبدأ القائل :

« من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته » ..

ويذهب الماركسيون الى أن أهم مميزات النظام الشيوعى هى :

١ ـ احداث تحولات أساسية فى المجتمع فى نواحى الانتاج والعلاقات الاجتماعية والثقافية ، كما يتم حدوث انقلاب فى أسلوب الحياة وأفكار الناس ، ويتوفر للجميع الظروف التى تحقق أسمى ما يطمح اليه الانسان ٠

٢ ـ القضاء على الطبقية وعلى الفروق بين المدينة والقرية ، والمساواة فى المستوى الثقافى والتكنيكى بين المثقفين والعمال ، ومن ثم ينتهى الفرق بين العمل الذهنى والعمل اليدوى ، ويصبح الجميع عمالا فى المجتمع ٠

٣ ـ تمتع جميع الأفراد بظروف متساوية فى العمل والتوزيع ، ويتم الانسجام التام بين الفرد والمجتمع ، اذ يتم الارتباط الكامل بين مصالح الفرد والمجتمع ٠

٤ ـ الوصول الى ثقافة عالمية لكل البشر ٠

٥ ـ تكوين انسان يتحلى بصفات حب العمل والنظام والاخلاص للمجتمع الأمر الذى يدفع العامل الى التنظيم والدقة نتيجة شعوره العميق بالواجب نحو المجتمع ٠

٦ ـ تحقيق الهدف النهائى : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته » ٠

وواضح ان جميع هذه الخصائص لم تتحقق حتى يومنا هذا ، ولذا يرى الماركسيون أن الشيوعية هى الغاية التى يحاولون الوصول اليها ، ومن ثم فالدول التى تطبق فى يومنا هذا المبادىء الماركسية هى دول اشتراكية فى الطريق الى الشيوعية ٠

مراجع الباب الأول

* لقد كان جل اعتمادنا فى تحرير هذا الباب ـ الخاص بالعرض التحليلى للماركسية فى مختلف جوانبها الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ـ على المراجع الآتية :

١ ـ ف . ج . افاناسييف : أصول الفلسفة الماركسية : ترجمة : حمدى عبد الجواد ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، دار الطباعة الحديثة .

2. J. Y. Calvez, La pensée de Karl Marx, Ed. du Seuil, Paris, 1956.

3. Henri Lefebvre; Le Marxisme ; Paris, 1965, P.U.F.

4. Henri Lefebvre, Pour connaître la pensée de Marx, Paris, 1948.

5. Henri Lefbvre, Pour connaître la pensée de Lénine, Paris, 1957.

6. Henri Lefebvre, Le Matérialism dialectique, Paris, 1939.

7. Karl Marx, Introduction à la Critique de l'économie politique, trad. franc. Paris, 1857.

8. Karl Marx, Salaires, prix et profit, trad. franç., Paris, 1945.